نشأة قطر وتطورها
حتى عام ١٨٦٨

الدكتور
يوسف إبراهيم العبد الله
قسم التاريخ – جامعة قطر

نشأة قطر وتطورها
حتى عام ١٨٦٨

فى البداية ينبغى الإشارة إلى أن تاريخ قطر منذ مطلع العصر الحديث ، وحتى أواسط القرن التاسع عشر ، قبل انفراد آل ثانى بالسلطة فيها وبروزها كإمارة مستقلة، كان جزءا من تاريخ منطقة الأحساء ، أو المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية، ومن ثم خضعت قطر لكل ما خضعت له هذه المنطقة من تطورات وأحداث، ويترتب على ذلك أن قطر - بل وبقية إمارات الخليج العربى - لم يكن لها تاريخ مستقل كوحدة سياسية خاصة ، وإنما كانت ، رغم تميزها الجغرافى ، داخلة ضمن إقليم الأحساء ، الذى كان يشكل الجزء الأكبر من إقليم ممتد على الساحل الغربى للخليج العربى ، يمتد من البصرة شمالا حتى عُمان جنوبا ، كما يطلق على هذا الإقليم اسم « بلاد البحرين» لفترة طويلة من الزمن مع بداية الفتح الإسلامى[١] .

وربما لعدم وجود فاصل جغرافى واضح يفصل جزيرة قطر عن شبه الجزيرة العربية، فإنها مع جزر البحرين وساحل الأحساء ، كانت قطر تشكل جزءا متكاملا من الكيان السياسى القائم حولها لفترات كثيرة ، وعموما ظلت المنطقة كلها تتبع مقر الخلافة الإسلامية ، سواء فى الحجاز أم فى الشام أم فى بغداد ، إلى أن تمكّن القرامطة من

---

(١) راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان ، المجلد الثانى ، ط (١) القاهرة ١٩٠٦ ، ص ٧٢ .

تخـريـب عاصمتها « هجر » عندما استولوا عليها ، وبنوا مدينة « الأحساء » التى جعلوها عاصمة جديدة للمنطقة . ومن مدينة الأحساء اتخذ الإقليم اسمه فيما بعد .

وقـد تتابع على حكم الأحساء كل من العيونيين وآل زامل الجبرى وآل مغامس ، إلى أن جاء البرتغاليون فاحتلوها حوالى عام ١٥١٧ ، وظلوا يسيطرون عليها حتى جاء الأتـراك العثمانـيون وطـردوهم منها فى أواسط القرن السادس عشر ، ومنذ سيطر العثمانيون على المنطقة ، ارتبطت الأحساء مع شقيقتها القطيف بتاريخ سياسى واحد، ثم انفصلت عنها جزيرة « أوال » التى استقلت باسم « البحرين »[١] .

والمعـروف أنـه عندما وصل الأتراك العثمانيون إلى البصرة على الخليج العربى فى موجـة زحفهـم لضم العالم العربى منذ أوائل القرن السادس عشر ، لم يستطيعوا أن يؤسسوا لهم قاعدة بحرية قوية فى البصرة ، ويبسطوا من خلالها سيطرتهم على الخليج ، حيـث لم تكـن ملائمة لذلك آنذاك ، كما أنهم ووجهوا بالعصبيات القبلية البدوية ومشـاكلها ، فضـلا عن مواجهتهم للدولة الصفوية فى إيران ، التى كانت تؤكد وجودها وطموحها فى المنطقة ، ولذلك يجمع المؤرخون على أن الخليج العربى لم يشهد سيطرة عثمانية فعّالة حتى الثُلث الأخير من القرن التاسع عشر .

ومـع ذلك استطاع العثمانيون غزو الأحساء والاستيلاء عليها خلال العقد الأخير مـن القرن السادس ، وعينوا عليها « فاتح باشا » أول وال عليها بعد إخضاع عشيرة « أجود بن زامل الجبرى » ، وبالرغم من ذلك فإن سـلطة الأتراك فى المنطقة كانت ضعيفة ، ثم ما لبثت أن انهارت نحو عام ١٦٧٠ على يد قبيلة آل حميد من بنى خالد ، الـتى ظلت تناضل الأتراك نضالا مريرا طوال ثمانين عاما تقريبا ، تداول حكم الأحساء خلالهـا أربعة من الباشـوات العثمانيين ، كان آخرهم « عمر باشا » الذى استسلم لـ « براك بن عرير » من آل حميد من بنى خالد[٢] .

---

(١) فى سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م بنى أبو طاهر (من القرامطة) مدينة بجانب هجر سماها « الأحساء » وهى الـتى نمـت وأصـبحت قاعدة للبلاد . راجع محمد عرابى نخلة : تاريخ الأحساء السياسى ١٨١٨ - ١٩١٣ ، دار السلاسل بالكويت ١٩٨٠ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) السـيد رجـب حـراز : الدولـة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠ - ١٩٠٩ ، معهد البحوث والدراسـات العربية ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ ؛ وأحمد أبو حاكمة : تاريخ شرق شبه الجزيرة العربية فى العصور الحديثة ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٤٨ .

وهكذا انهار سلطان الأتراك فى شرق شبه الجزيرة العربية منذ عام ١٦٧٠ ، لينفرد بنو خالد بحكم المنطقة ، حيث استطاعوا تأسيس سلطة قوية فى إقليم الأحساء ، امتدت من حدود ولاية البصرة شمالا ، وضمت مناطق الكويت والأحساء وقطر والبحرين ، وبالرغم من ذلك فضّل حكام بنى خالد إعلان ولائهم للدولة العثمانية من خلال محافظتهم على علاقة طيبة بولاة البصرة العثمانيين . وقد استمر هذا الوضع حتى أواخر القرن الثامن عشر ، عندما نجحت الدولة السعودية الأولى ، التى أسسها محمد ابن سعود ، مستندا إلى مبادئ الدعوة السلفية (الوهابية) ، فى ضم الأحساء والقضاء على سلطة بنى خالد منذ عام ١٧٩٣ ، فى الوقت الذى كانت الدولة العثمانية غارقة فى مشاكلها فى أوروبا والبلقان .

وبدا واضحا أن انصراف الدولة العثمانية عن الخليج أتاح الفرصة لحكومة الهند البريطانية ، لتبسط نفوذها على المنطقة ، فى ظل غياب أية قوة محلية أو عربية مؤثرة ، باستثناء قوة القواسم الذين تصدت لهم السلطات البريطانية بقوة وحزم ، لذلك عندما فكرت الدولة العثمانية ، فى أن تحوِّل وجودها الاسمى فى الخليج إلى وجود فعلى ، عسكرى وسياسى ، منذ عام ١٨٦٩ ، وجدت أن بريطانيا قد سبقتها وثبتت أقدامها فى الخليج وعلى سواحله من خلال القوة العسكرية ، وبالمعاهدات التى قيدت بها شيوخ المنطقة تحت اسم إقرار السلم العام أو الهدنة البحرية ... إلخ ، كما أنها حصَّنت وجودها باتفاقيات مقاومة « القرصنة » وتجارة الرقيق وتجارة السلاح وغير ذلك من الذرائع التى أباحت بها لنفسها التدخل فى المنطقة وفرض هيمنتها عليها .

ويتفق المؤرخون على أنه لم تكن هناك إدارة عثمانية حقيقية للدولة العثمانية خارج ولاية البصرة ، حتى لقد أصبح الوجود العثمانى على الساحل الغربى للخليج مجرد وجود اسمى لا تأثير له ، كما أن سيادة الدولة العثمانية الاسمية لم تتعدَ الكويت ، التى كانت تكتفى بمجرد رفع الراية العثمانية على قصر شيخها دونما سلطة حقيقية للدولة، فى الوقت الذى أصبح فيه الساحل الجنوبى للخليج العربى منطقة نفوذ بريطانية صرفة . أما البحرين فلم يمانع شيوخها من الارتباط بالدولة العثمانية كذريعة لمواجهة الأطماع

الإنجليزية أو الفارسية ، وعندما رفعوا راية الدولة أنزلها الإنجليز . أما قطر فلم تكن قد برزت ككيان سياسى مستقل مثلما حدث بعد ذلك عام ١٨٦٨ .

* * *

وقد خضعت شبه جزيرة قطر بطبيعة الحال لحكم بنى خالد حتى أواخر القرن الثامن عشر ، قبل أن يقضى السعوديون على سلطتهم ، و لم يكن بنو خالد يمارسون سلطة مباشرة على قطر وقبائلها ، وإنما كانوا يعتمدون على أصهارهم من أسرة «آل مُسلَّم» التى كانت تتخذ الحويلة مركزا لها آنئذ ، فقد عهد إليهم أمير الأحساء بجمع الخراج السنوى من أهالى قطر لإرساله إلى الأحساء ، مما اقتضى قيامهم بتصريف شؤون قطر ، فاكتسبوا بذلك نفوذا على الأهالى لفترة من الزمن[1] . وإن لم يكن هذا النفوذ شاملا ، فالمعروف أن الشيوخ المحليين فى المناطق التى تخضع لسلطة بنى خالد كانوا يمارسون نوعا من الاستقلال الذاتى فى أعقاب وفاة سليمان بن محمد زعيم بنى خالد عام ١٧٥٢ .

ومنذ أواسط القرن الثامن عشر بدأ حكم بنى خالد للمنطقة يضعف ، وبدا عجزهم واضحا فى التصدى للقوة السعودية المكتسحة للمنطقة ، التى شهدت فى نفس الفترة تقريبا انتقال آل خليفة ، أحد فروع تجمع العتوب ، بعد ابتعادهم عن هذا التجمع القبلى، وهجرتهم للإقامة فى الزبارة على ساحل قطر الغربى منذ عام ١٧٦٦ .

وكانت قبائل العتوب والمعاضيد وغيرها من التجمعات القبلية قد هاجرت من أواسط شبه الجزيرة العربية ومن قلب نجد بين أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر بسبب القحط الشديد ، وبسبب تفشى الصراعات القبلية ، واتجهت نحو الساحل الغربى للخليج ، سعيا وراء الرزق الذى قد يأتى به الساحل ، فاستقر العتوب

---

(١) راجع : محمد شريف الشيبانى : إمارة قطر العربية ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦١ - ١٩٦٢ ، ص٣٩ وإن كان كيلى يرى أنه ليس ثمة ما يؤيد احتمال أن يكون بنو خالد شيوخ الأحساء قد مارسوا نوعا من السيطرة على آل مُسلَّم حتى منتصف القرن الثامن عشر ، راجع جون كيلى : بريطانيا والخليج ١٧٩٥ - ١٨٧٠ ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ٤٧ .

بفروعهم الثلاثة المعروفة (آل خليفة يقودهم الشيخ خليفة بن محمد ، وآل صباح يقودهم الشيخ سليمان بن أحمد ، ثم آل الجلاهمة يقودهم الشيخ جابر بن عتبة)[١] فى ساحل قطر عند الزبارة فى ظل رعاية آل مُسلَّم وضيافتهم ، وإذا كانوا قد وفدوا إلى الزبارة فى أواخر القرن السابع عشر ، ثم هاجروا إلى الكويت عن طريق البحر حوالى عام ١٧١٦ ، فمعنى ذلك أنهم قضوا فى الزبارة نحو نيف وعشرين عاما تقريبا . ويبدو أن القبائل الثلاث قد اختلفوا مع آل مُسلَّم ، الذين أوجسوا منهم خيفة ، فضيقوا عليهم ، بل قد اشتبك الفريقان فى معركة عند رأس التنورة انتصر فيها العتوب ، لكنهم اضطروا إلى أن يضربوا بسفنهم فى الخليج حتى تجمعوا عند ساحل الكويت ليستقروا فيها نحو خمسين عاما (١٧١٦ - ١٧٦٦) .

وقد ازدهرت الكويت بفضل نشاط أهلها التجارى وبلغت درجة عالية من الرخاء، مما قاد فى النهاية إلى اختلاف آل خليفة مع حلفائهم وإيثارهم الهجرة عن الكويت فاتجهوا بسفنهم نحو البحرين ولكنهم مُنعوا من النزول ، فاستأنفوا السير إلى الزبارة ونزلوا بها عام ١٧٦٦ ، وكانوا على خبرة بالمكان منذ هجرتهم الأولى إليه ، كما كانوا يدركون أهميته لموقعه التجارى ولقربه من مغاصات اللؤلؤ الغنية . وعند وصول آل خليفة إلى المنطقة لم يلقوا أية معارضة ، كما لم يحدث أى صدام بينهم وبين أهالى قطر لكثرة ترددهم على المنطقة ، ونجح شيخهم محمد بن خليفة فى أن يجمع الناس حوله وذلك بإقراضهم المال مقابل شراء محصول اللؤلؤ ، كما اتجه إلى الإصهار إلى آل ابن على من قبائل قطر لتزداد روابط المودة معهم .. ولم ينظر آل مُسلَّم إلى نجاح

---

(١) ذكرها فرانسيس واردن فى ملاحظاته عن عرب العتوب فى البحرين عام ١٨١٩ ، ولكن عباس الخصوصى ذكر أنه ليس بين زعماء آل صباح أحد بهذا الاسم وأن واردن اختلط عليه اسم «سليمان ابن محمد آل حميد» أمير بنى خالد ، الذى كانت الكويت ضمن مناطق نفوذهم ، وأن أول زعيم برز من آل صباح هو الشيخ صباح بن جابر أول حاكم للكويت من العتوب ، راجع الخصوصى : دراسات فى تاريخ الخليج العربى ، جـ١ ، الكويت ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ؛ وراجع كذلك : فائق طهبوب : تاريخ البحرين السياسى ١٧٨٣ - ١٨٧٠ ، ذات السلاسل بالكويت ١٩٨٣ ، ص ٤٠؛ وكذلك يوسف القناعى : صفحات من تاريخ الكويت ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٨ .

آل خليفة وتفوقهم التجارى بعين الرضا ، ورغم اعتراف آل خليفة بسلطة آل مُسلَّم باعتبارهم نوابا عن بنى خالد كما كانوا يدفعون نصيبهم من الخراج شأن القبائل القطرية ، إلا أن الشيخ محمد بن خليفة جعل يحصن نفسه فى الزبارة ، ويحصن المدينة ، التى بنى فيها قلعة « المرير » عام ١٧٦٨ ، استعدادا لحماية الزبارة إذا ما هاجمها آل مسلم .

وعندما نمت ثروة آل خليفة وقوى مركزهم ، خاصة وأن الزبارة شهدت ازدهارا تجاريا كبيرا بفضل نشاطهم وبسبب هجرة تجار البصرة الأثرياء إليها فرارا من احتلال الفرس لبلدهم (١٧٧٥ - ١٧٧٩) وكذلك ازدهار نشاط الغوص وتجارة اللؤلؤ ، وبسبب ذلك كله ونتيجة إحساس آل خليفة بالغنى والقوة بدأوا يتوقفون عن دفع حصتهم من الخراج ، وتحصنوا بقلعتهم التى اتخذوها فيما بعد نقطة الوثوب على البحرين[١] .

ومن الملاحظ أن إقامة آل خليفة فى قطر لم تتعد ميناء الزبارة . أما بقية شبه الجزيرة فكانت تقطنها مجموعات قبلية بعضها حضرى أهمها المعاضيد ، الذين تنتمى إليهم أسرة آل ثانى ، والبوعينين والسودان وآل بن على والقبيسات والخليفات والبوكوارة والسلطة والمنانعة والمهاندة ، فضلا عن الهولة ، والبعض الآخر بدوى مثل المناصير وبنى مُرّة والهواجر والكعبان وبعض من النعيم وغيرهم .. وكانت معظم هذه القبائل تمارس نوعا من الحكم الخاص بها .. ويتركز معظمها فى البدع والوكرة والحويلة والفويرط وخور حسان[٢] .

---

(١) جمال زكريا قاسم : الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية فى عصر التوسع الأوروبى الأول ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ٤١٧ - ٤١٨ ؛ وحول إقامة محمد بن خليفة الكبير فى الزبارة راجع راشد بن فاضل البنعلى : مجموعة الفضائل فى فن النسب وتاريخ القبائل ، تحقيق حسن ابن محمد آل ثانى ، الدوحة ٢٠٠١ ، ص ٤٢ - ٤٤ .

(٢) شركة الزيت العربية الأمريكية ، عُمان والساحل الجنوبى للخليج الفارسى ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص٢٧٥ - ٢٨١ ؛ وكذلك جمال زكريا : المرجع السابق ، ص ٤١١ ؛ وكذلك :

Zahlan, R. S., The Creation of Qatar, London 1979, pp. 26- 27.

لقــد كانت عيون آل خليفة تتطلع إلى البحرين ، خاصة بعد أن تحولوا من مجتمع بــدوى إلى مجتمع شبه رأسمالى ، وبات يشكل خطرا على حكام البحرين من الفُرس ، الذين أثارهم ازدهار الزبارة ونشاط آل خليفة ، حتى لقد حاول حاكم البحرين «نصر آل مذكور» احتلال الزبارة بين عامى ١٧٧٧ ، ١٧٨١ لكنه فشل ، وبدا واضحا أن خصومه من آل خليفة صاروا أقوياء وأنهم باتوا يتطلعون إلى التوسع فى البحرين بعد أن رأوا أن الزبارة رغم ازدهارها ونموها لم تعد تكفى طموحهم الكبير ، كما أن توسعهم فى بــر قطر سيقودهم إلى الصدام مع قبائل قطر وآل مُسلّم وبنى خالد بطبيعة الحال .. المهــم أن ســوء العلاقــات بين آل خليفة وحكام البحرين ومحاولات هؤلاء إخضاع الزبارة، قد دفع بالفريقين إلى صراع حاسم[١] .

واســتطاع آل خليفة حشد معاونين لهم من عتوب آل صباح والجلاهمة ، وكذلك الحصول على معونة القبائل القطرية وعلى رأسها آل مُسلّم من الحويلة وآل بن على من الفويرط والسودان وآل سليط من الدوحة ، والبوعينين من الوكرة والقبيسات من خور حســان والمـنانعة من أبو الظلوف والسادة من داخل قطر ، حسب رواية «لوريمر»، ليشارك هؤلاء جميعا برجالهم وسلاحهم فى فتح البحرين والقضاء على الحامية الفارسية فى المنامة بعد حصارها[٢] .

وهكــذا استطاع آل خليفة بمعونة حلفائهم السابقين والجدد الاستيلاء على جزر الــبحرين فى يولــيو ١٧٨٣ ليستقروا فيها بشكل أساسى وليتخذوها مقرا لحكمهم ، محققــين بذلــك أحلامهــم ، ومستقلين بهذه الجزر ، مبتعدين عن أخطار أى توسع ســـعودى محــتمل يــأتى من البر . وقد آثر الشيخ أحمد بن خليفة الذى قاد العملية والــذى لُقِب « بالفاتح » أن يقضى سنواته التالية بين مملكاته فى الزبارة ، تاركا حكم

(١) فائق طهبوب : المرجع السابق ، ص ٤٦ - ٤٧ .

(٢) لوريمـــر : دليل الخليج ، ترجمــة الديوان الأميرى بدولة قطر ، الجــزء الثالث ، الدوحة ١٩٧٥ ، ص١٢٧٢ .

البحرين لولديه ، حتى انتقل مقـر الأسرة جميعا إلى البحرين نهائيا بعد وفاة الفاتح عام ١٧٩٤[١] .

وتحولـت البحـرين منذ ذلك التاريخ إلى إمارة عربية يحكمها فرع العـتوب من آل خليفة، وكان أول شـيخ منهم يحكم البحرين هو الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة (١٧٨٣ - ١٧٩٤) كما أصبحت البحرين - لا الزبارة - هى مقر الأسرة الحاكمة . ولما كان فرع العتوب من آل صباح قد انفردوا بحكم الكويت ، فإن الفرع الآخر من الجلاهمـة الذين كانوا يأملون فى أن مشاركتهم فى فتح البحرين ستعود عليهم بفوائد تتـيح لهـم بـناء سلطة مستقرة ، لكنهم لم يكافأوا بما يليق بجهودهم ، بل لقد بدأوا يحسـون أن بقية أهل البحرين يسيئون معاملتهم ، لذلك اتجهوا بأشرعتهم ، تحت قيادة رحمـة بن جابر ، صوب جزيرة خرج وبوشهر ، ثم ما يلبثوا أن عادوا إلى شبه جزيرة قطـر ، حيـث استقروا فى خور حسان ، وسرعان ما بدأ رحمة فى الانتقام من حلفاء الأمـس ، ومـنذ عـام ١٨٠٩ بدأت عملياته البحرية واعتداءاته ضد سفن العتوب الآخـرين وكذلـك الإيرانيين ، وكانت هذه العمليات ، على ما فى بعضها من طابع «القرصـنة» ، تتخفى دائما تحت ستار الحرب المشروعة ، وإن ظل مسلكه تجاه السفن والرعايا البريطانيين يتسم بالحذر والدهاء .

وينبغى التأكيد على أن سلطة رحمة بن جابر لم تتعد خور حسان ، بل إنها لم تمتد إلى الزبارة التى كانت تقع إلى جوار مقره مباشرة ، ورغم أنه أثبت لنفسه مكانة ودورا واسـتطاع بواسـطته إقامـة علاقة وثيقة مع السعوديين حتى عاونهم فى إخضاع قطر لسيادتهم ، كما عاون مبعوثهم فى حكم المنطقة حتى الزبارة[٢] .

* * *

(١) راشـد بن فاضل البنعلى : مجموع الفضـائل ، ص ٤٨ - ٤٩ حول إمارة الشـيخ أحمد بن محمد آل خلـيفة وفتح البحرين ؛ وراجع عبد العزيز المنصور : التطور السياسى لقطر ١٨٦٨ - ١٩١٦ ، ذات السلاسـل بالكويـت ، ط(٢) ١٩٨٠ ، ص ٣٤ - ٣٥ ؛ وكذلك صلاح العقاد : التيارات السياسـية فى الخليج ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٥٢ - ٥٥ ؛ وجمال زكريا : المرجع السابق ، ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

(٢) راجع لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث ، ص ١٢٠٠ .

كان ظهور الدعوة السلفية فى نجد على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، واقتناع الأمير محمد بن سعود أمير الدرعية بها منذ عام ١٧٤٥ ، وتحالف الشيخ مع الأمير ، قد أدى إلى قيام الدولة السعودية الأولى ، التى استطاعت بعد معارك طاحنة أن تثبت دعائمها فى نجد ، وأن تواجه تحديا خطيرا من قوة بنى خالد فى الأحساء ، الذين قادهم « عريعر بن دجين » هم وغيرهم من قبائل الأحساء ، وزحف بهم إلى الدرعية عاصمة السعوديين عام ١٧٥٨ ، لكنه فشل فى هذا الهجوم ، ليظل بنو خالد يناصبون الدولة السعودية العداء خلال الفترة التالية ، حتى سير السعوديون جيوشهم إلى الأحساء التى سقطت فى أيديهم عام ١٧٩٣ بعد معارك عنيفة ، ثم اتخذوها قاعدة تنطلق منها جحافلهم نحو عُمان واليمن وقطر والبحرين ، وبقية بلدان الخليج العربى[١] ، حتى قضوا على حكم بنى خالد فى المنطقة بأسرها .

وفيما يتعلق بقطر فقد بدأت علاقة السعوديين بها منذ عام ١٧٨٨ عندما أعد سليمان بن عفيصان أمير الخرج حملة عبر بها الأحساء للإغارة على قطر ، وهناك فاجأ رجالا من قبيلة آل بورميح فهزمهم ثم انسحب إلى نجد . وبين عامى ١٧٩٣ - ١٧٩٤ تولى إبراهيم بن عفيصان قيادة حملة لبسط سيادة السعوديين على قطر ، ووصلت جيوشه إلى الحويلة على الساحل الشمالى الشرقى لقطر وإن لم تستقر فيها[٢]. وفى عام ١٧٩٨ شن إبراهيم هجوما كبيرا على الزبارة ، وعهد إلى رجاله بمهمة عزل المدينة عبر البر ومحاصرتها تمهيدا للاستيلاء عليها دون قتال ، ولكن الحصار فشل ، مما اضطره إلى الهجوم على قلعتها التى سقطت فى يده بعد خسائر فادحة فى الأرواح ، ثم شرعت القوات السعودية فى احتلال مدن قطر الأخرى مثل الحويلة والفريحية واليوسفية والرويضة ، وقد استعان السعوديون بسفن الأهالى ضد سفن العتوب ، الذين أدركوا مدى قوة السعوديين ، فاضطروا إلى مغادرة الزبارة ، التى باتت خاوية ، واستطاع السعوديون بعد ذلك بسط سيطرتهم على شبه جزيرة قطر .

---

(١) محمد عرابى نخلة : تاريخ الأحساء السياسى ، ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) شركة الزيت العربية - الأمريكية ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

وقد خضعت البحرين كذلك لحكم السعوديين ، حتى استطاع الأمير سعود ابن عبد العزيز أن يؤلف ولاية تضم كلا من القطيف وقطر والبحرين ، وأن يجعل من الأخيرة مقرا لها . بعد أن عهد إلى عبد الله بن عفيصان بحكمها[١] ، وقد دخلت المنطقة طواعية فى المذهب السلفى كما هو معروف ، وكانت أموال الزكاة أو الخراج تجمع من قطر والأحساء لترسل إلى مقر الولاية فى البحرين ليتم إرسالها إلى عاصمة الدولة السعودية . ومضى آل خليفة يصرفون شؤون إدارة الولاية فى ظل السيادة السعودية .

غير أن النفوذ السعودى على الولاية المثلثة لم يستمر طويلا ، فلم يلبث سوى أعوام قليلة ، فقد شكلت الدولة السعودية خطرا على سيادة الدولة العثمانية فى شبه الجزيرة العربية ، خاصة بعد أن ضمت الجيوش السعودية الحجاز ، لذلك لجأ السلطان العثمانى إلى واليه فى مصر « محمد على باشا » الذى أرسل عدة حملات خلال الفترة (١٨١٢ - ١٨١٨) استطاعت أن تقوِّض سلطة الدولة السعودية وأن تدمر عاصمتها الدرعية ، وأن تستقدم قوات محمد على لتنهى نفوذها على الأحساء والخليج بشكل عام، وخلال نفس الفترة تقريبا تعرّض السعوديون لمتاعب جاءت من حدودهم الغربية تمثلت فى هجمات قام بها سلطان مسقط ، الذى شن حملة بحرية على قطر وطرد الحاميات السعودية من الزبارة وخور حسان ، بل وأحرق الزبارة ودمرها تماما ، فضلا عن مهاجمة السلطان جزر البحرين واحتلالها فترة من الزمن[٢] .

وكانت النتيجة هى إجلاء الحاميات السعودية عن قطر والبحرين ، حيث تم أسر الحاكم السعودى لولاية « القطيف - قطر - البحرين » وعادت البحرين إلى سيطرة آل خليفة ، بل أكثر من هذا فإن طبيعة تلك التطورات جعلتهم يتولون تسيير الأمور فى المناطق الثلاثة كما استمروا يجمعون الزكاة التى كانت تُحصَّل من قبل لصالح السعوديين[٣] .

---

(١) لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث ، ص ١٢٠٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٠١ ؛ وكذلك شركة الزيت العربية الأمريكية ، ص ٢٨٦ .

(٣) كتاب العهد : قطر وثروتها النفطية ، الدوحة ١٩٨٤ ، ص ٤٨ .

ويلاحظ أنه قبل انتهاء النفوذ السعودى من المنطقة ، كان السعوديون قد بسطوا حمايتهم على رحمة بن جابر ، الذى صارت تربطه بهم علاقات وثيقة ، حتى لقد ذكر « لوريمر » أنه صار يحكم بالاشتراك مع مبعوثهم حتى مدينة الزبارة ولم يكف رحمة عن توجيه هجماته على سفن أعدائه فى الخليج من قاعدته التى اتخذها فى خور حسان[١] ، غير أن سقوط حلفائه جعله يتخبط فى قتال يائس ضد سفن العتوب ، حتى لقد اضطر إلى نقل مقره من قطر إلى الدمام على ساحل الأحساء ، ثم ما لبث أن انقلب على السعوديين ، الذين أسخطهم ذلك فدمروا عام ١٨١٦ قلعة كان قد شيدها بالدمام وإن تمكّن بجهد خارق من إنقاذ أسرته وممتلكاته وإعادتها إلى خور حسان ، ثم لم يلبث أن رحل إلى بوشهر ، ليعود مرة أخرى إلى الدمام عام ١٨١٩ ، ولم يعد يلعب دورا فى تاريخ قطر ، وعموما لم تنته المتاعب التى أثارها رحمة ضد آل خليفة إلا بعد أن لقى حتفه فى إحدى المعارك البحرية عام ١٨٢٨[٢] .

* * *

وحتى حدوث التطورات السابقة لم تكن بريطانيا قد اتصلت بقطر اتصالا مباشرا، أو أدخلتها فى دائرة اهتمامها ، باستثناء يقظتها وتصديها لنشاط رحمة بن جابر . وعموما صارت علاقة بريطانيا ، فيما بعد ، بقطر تشكل فصلا هاما من فصول تطور قطر السياسى ، يمتد من الربع الأول من القرن التاسع عشر وحتى استقلالها عام ١٩٧١ . والواقع أن صلة بريطانيا بقطر تمثل حلقة من حلقات نفوذها فى الخليج العربى ككل ، ذلك النفوذ الذى بدأ مع تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية ، ثم ضم الشركة إلى التاج البريطانى وتأسيس حكومة الهند البريطانية ، التى نشطت لإخضاع الخليج لسيطرة بريطانيا ، التى بررت ذلك بالقضاء على « القرصنة » وعلى تجارتى السلاح والرقيق ، أو باسم تأمين الملاحة وتحقيق السلام العام فى البحر . وقد

---

(١) حول نشاطات رحمة بن جابر البحرية ورصد السلطات البريطانية لها ، راجع لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث ، ص ١١٩٩ ؛ وكذلك شركة الزيت ، ص ٢٨٦ .

(٢) لوريمر : المصدر السابق ، ص ١٢٠٢ - ١٢٠٣ .

لجـأت بريطانيا لتنفيذ سياستها عبر مرحلة طويلة ، وبأساليب مختلفة ، نتج عنها فرض الاتفاقيات والمعاهدات أو التعهدات التى يلتزم فيها الحكام بتنفيذ السياسة البريطانية التى تمليها القـوة وحدها . وقد بدأت هذه التعهدات منذ عام ١٨٢٠ ، وانتهت بمعاهدة الحماية البريطانية على قطر عام ١٩١٦ ، ومرورا باتفاقيات الهدنة البحرية ، المؤقتة والدائمة ، ثم الاتفاقيات الانفرادية أو المانعة ، التى طالت كل إمارات الخليج العربى .

وقد نجحت بريطانيا من خلال التهديد باستعمال القوة ، واستعمالها أحيانا ، فى أن تجعل من نفسها حكما وجلادا فى كل الصراعات المحلية والإقليمية فى المنطقة ، وخلقت بذلك مشكلات حدودية لاتزال المنطقة تعانى من آثارها حتى وقتنا هذا .

وفيما يتعلق بشبه جزيرة قطر فيلاحظ أن علاقة قبائلها وشيوخها ببريطانيا تأخرت نسبيا عن غيرها من الكيانات السياسية والقبلية فى الخليج ، فلم يحدث ذلك إلا مع بداية العشرينيات من القرن التاسع عشر ، فليس ثمة معلومات موثّقة عن اتصال الإنجليز بساحل قطر قبل عام ١٨٢١ . فبعد إقرار بريطانيا لمعاهدات السلام العامة (السلم البحرى) عام ١٨٢٠ ، كانت السلطات البريطانية فى الخليج وعلى رأسها المقيم السياسى البريطانى (مقره فى بوشهر) تعتقد أن امتداد السواحل القطرية يدخل فى إطار تلك المعاهدات .

ونتيجة للمتاعب والقلق الذى سببه نشاط رحمة بن جابر ضد سفن آل خليفة ، وانحيازه إلى حاكم فارس فى محاولة غزو البحرين – التى لم يقدر لها أن تتم – ثم رفضه طلب المقيم السياسى لأن يكون طرفا فى معاهدات السلام العامة عام ١٨٢٠ ، ونتيجة حدوث بعض أعمال « القرصنة » على ساحل قطر ، أرسلت شركة الهند الشرقية البريطانية المدمرة « فستال » عام ١٨٢١ لتطلق مدافعها على طول ساحل المنطقة لإرهاب الشيوخ والأهالى وإثبات قوة بريطانيا . وكان من نصيب « البدع » أن قصفت بالمدافع لإرهاب القبائل القطرية ، مما نتج عنه تدمير المدينة وهجرة المئات من سكانها إلى الجزر الممتدة بين قطر والساحل العُمانى . وكان هذا القصف البريطانى لسواحل قطر أول « اتصال » لبريطانيا بالمنطقة !

وبعـــد ذلك بنحو عامين قام المقيم السياسى البريطانى فى الخليج « ماكلويد » فى يـــناير ١٨٢٣ بـــأول زيارة له للدوحة ، خلال قيامه بجولته على طول ساحل الخليج العـــربى ، ووجد أن كبار رجال البوعينين يتمتعون بنفوذ كبير فى الدوحة ، كما كان يعتقد بتبعية المنطق للبحرين ، وبالتالى فإنها تخضع لمعاهدة السلم العامة التى وقّعها شيوخ البحرين مع بلاده فى فبراير ١٨٢٠ ، لكنه أبدى ملاحظة هامة مؤداها أنه وجد السفن الـــتجارية للأهـــالى فى الميـــناء لا تـــرفع الأعلام المنصوص عليها فى المعاهدة أو تحمل التراخـــيص المتعلقة بذلك ، مما يعنى أن القطريين لا يعرفون شيئا عن هذه المعاهدة(١) ، وقد يفهم من ذلك أن الأهالى لم يكونوا خاضعين لسلطة آل خليفة فى البحرين ، الذين دخلـــوا فى المعاهدة ، ولذلك أمر المقيم البريطانى بحصر جميع السفن ومنحها التراخيص اللازمـــة ، وبـــأن تـــرفع أعلام المعاهدة ، كما أمر بإجراء مسح شامل لسواحل قطر ومياهها الشرقية ، وقد نفذت هذه الأوامر بالفعل .

ومـــنذ زيارة المقيم لقطر عام ١٨٢٣ وحتى انسحاب الجيوش المصرية من الأحساء والجزيـــرة بموجب معاهدة لندن عام ١٨٤٠ لم تبد السلطات البريطانية اهتماما كبيرا بتطور الأحداث فى شبه جزيرة قطر ، ومن ثم لم يكن لها علاقة واضحة بالمنطقة ، وكل ما ورد بتقارير البريطانيين هو ما لاحظوه من وجود سلطة لشيخ البحرين على المنطقة الســـاحلية مـــن قطـــر ، ومع ذلك لم تكن سلطة وحيدة ، أو أنها لم تجد من ينازعها وينافسها(٢) .

* * *

ويلاحـــظ أنـــه خلال فترة انحسار النفوذ السعودى عن المنطقة وتقدم قوات محمد عـــلى، أنـــه قد نتج عن ذلك تطور هام تمثل فى بدء ظهور نفوذ القبائل المحلية القطرية فبرزت قوة قبيلة البوعينين ، بدا هذا واضحا عندما قتل شيخهم رجلا من البحرين فى الدوحة عام ١٨٢٨ ، فأمر شيخ البحرين (عبد الله بن أحمد) بالقبض عليه وسجنه ،

---

(١) لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث ، ص ١٢٠٤ - ١٢٠٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٠٦ .

لكـــن قبيلـــته رفضـــت أن تسلمه وتمردت ، عندئذ أمر شيخ البحرين بتدمير حصن البوعينين بالدوحة ونقلهم منها إلى الرويس والفويرط[١] .

ونتيجة لاستئناف السعوديين لنشاطهم منذ بداية الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وخشـــية شيخ البحرين من تحركاتهم ، رأى أن ينتقل مع ولديه (مبارك وناصر) ليقيم عـــلى ســـاحل قطـــر لمراقبة هذه التحركات ، حيث لم تكن علاقته بالسعوديين طيبة آنذاك، وأراد الشيخ أن يمارس نفوذه على أهالى الحويلة ، لكن هؤلاء تمردوا ضده عام ١٨٣٥ ، ولم ينـــته تمردهم إلا بعد توسط سلطان مسقط ، كما شهدت نفس الفترة خلافات حادة بين شيخ البحرين وبين قبيلتى آل بن على وشيخها عيسى بن طريف ، الذى اضطر إلى الانسحاب بجزء كبير من قبيلته إلى أبو ظبى ، وفعلت أعداد كبيرة من قبيلة البوعينين نفس الشىء ، وقد حاول عيسى بن طريف، الذى اضطر إلى الانسحاب بجزء كبير من قبيلته إلى أبو ظبى، وفعلت أعداد كبيرة من قبيلة البدعينيين نفس الشىء ، وقـــد حـــاول عيســـى بن طريف اتخاذ أبو ظبى قاعدة لعملياته ضد آل خليفة ولكن الســـلطات الـــبريطانية حالـــت دون ذلك .. وثبت من التطورات السابقة أن القبائل القطرية رفضت الخضوع لسلطة آل خليفة[٢] .

غـــير أن الخلافـــات والمتاعب السابقة كانت أقل بكثير من الصراعات العائلية التى كان الشيخ عبد الله بن أحمد يعانى منها فى البحرين ، الأمر الذى جعله يفكر فى تركها واتخـــاذ مقر هادئ له فى خور حسان على الساحل القطرى ، ورغم أنه اتخذ الترتيبات فعـــلا لهذا الأمر ، إلا أنه لم ينفذه إلا بعد فترة طويلة[٣] ، وعموما ساهمت الصراعات بـــين القبائل القطرية وآل خليفة ، ثم بين آل خليفة وبعضهم البعض ، فى بلورة القوى

---

(١) سالدانها ، ج. ج. : تاريخ البحرين السياسى ١٧٥٣ - ١٩٠٤ ، دراسة وترجمة فتوح الخترش ، ذات السلاسل بالكويت ٢٩٩٢ ، ص ٣١ .

(٢) جمـــال زكريا قاسم : الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ - ١٩١٤ ، جامعة عين شمـــس ، القـــاهرة ١٩٦٦ ، ص ٤٢٩ - ٤٣٠ ؛ وكذلك لوريمر : دليل الخليج ، الجـــزء الثالث ، ص ١٢٠٦ - ١٢٠٧ .

(٣) لوريمر : المرجع السابق ، ص ١٢٠٧ .

المحلـــية القطـــرية ، مما نتج عنه التطورات التى أبرزت شبه جزيرة قطر كوحدة سياسية بعيدة عن أية سلطة لآل خليفة وبروزها كإمارة مستقلة فيما بعد .

وعندما لاحظت السلطات البريطانية فى الخليج تزايد عمليات الاعتداء على السفن فى الخلـــيج بين عامى ١٨٣٥ و ١٨٣٦ والتى يقوم بها المهاجرون من ساحل عُمان إلى الســـاحل القطـــرى ، حيـــث استقر جزء منهم فى خور العديد هربا من دفع غرامات فرضت عليهم من قِبَل الإنجليز نتيجة عمليات سابقة ، اتهمت السلطات البريطانية أهالى قطـــر بـــأنهم يتعاطفون معهم ولا يردعونهم ، لذلك أرسلت قوة بحرية إلى ساحل قطر لـــتذكير الأهالى بمسؤولياتهم تجاه هذه الأعمال ، ونجحت القوة فى فرض تعهدات على شـــيوخ الدوحـــة والوكـــرة والعديد ، بالاستيلاء على قوارب « القراصنة » أو دفع الغـــرامات ، وفى ســـبتمبر ١٨٣٦ قدمـــت السلطات البريطانية إنذارا شخصيا لشيخ الدوحـــة ، الذى كانت تظن أن له علاقة بأحد زعماء القراصنة ، بأن يمتنع عن إيوائه فـــيما بعـــد .. ثم قررت إدخال قطر منذ ذلك العام ضمن اتفاقيات الهدنة البحرية التى أبرمـــت قـــبل عـــام .. ومع هذا لم تكف العمليات العدائية فى البحر تماما ، حتى إن السلطات البريطانية ألقت بالمسؤولية على شيخ الدوحة ، وقصفت المدينة بأحد مدافعها عام ١٨٤١ وطالبت الشيخ بالتعويضات[١] .

وهكذا شهدت فترة العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر فى شبه جزيرة قطر اضطرابات ومتاعب بدأت بمحاولة عتوب البحرين ملء الفراغ الناتج عن سقوط الدولـــة السعودية الأولى ، وصراع رحمة بن جابر المتواصل معهم ، واتخاذه من ساجل قطـــر قاعدة لعملياته ، ثم محاولات شيوخ البحرين فرض سيطرتهم على القبائل القطرية ومـــا نـــتج عـــن ذلـــك من تحديات وحركات تمرد قامت بها هذه القبائل ، وتزايد الاعـــتداءات الـــبحرية التى قام بها اللاجئون من ساحل عُمان إلى ساحل قطر وتصدى الإنجليز لذلك .

---

(١) يذكـــر كتاب العهد : قطر وثروتها النفطية ، ص ٤٩ « أن زعامة البدع كانت إذ ذاك لسالمين وعلى ابنى ناصر من قبيلة السودان » ؛ وراجع لوريمر : المصدر السابق ، ص ١٢١٠ - ١٢١٢ .

وقد انشغل شيوخ البحرين بالتصدى لتهديدات السعوديين ، بعد أن تطلع هؤلاء لبسط سيادتهم على البحرين مرة أخرى ، خاصة وقد نجح الأمير تركى آل سعود فى توطيد سلطته فى الأحساء وشرع يطالب آل خليفة بدفع الزكاة منذ عام ١٨٣١ ، وإن كان انشغال السعوديين بتجدد الصراع مع القوات المصرية فى نجد قد عطل ذلك إلى حين ، حيث نجحت القوات المصرية فى الإطاحة بالأمير فيصل الذى كان قد استرد عرش والده (١٨٣٤ - ١٨٣٨) غير أن فيصل تمكّن من الوصول إلى الحكم مرة أخرى عام ١٨٤٣ ، واستمراره فيه بعد توطيد دعائم الدولة السعودية الثانية ونجاحها فى تأمين سيطرتها على الجزيرة العربية والخليج العربى خلال السنوات التى أعقبت انسحاب القوات المصرية ، إذ حقق فيصل نجاحا كبيرا فى استعادة جميع الممتلكات التى فقدها السعوديون ، كما أخضع الأحساء ، ونجح فى كسر شوكة القبائل المتنازعة كالمناصير وآل مُرّة والعجمان ...

* * *

وقد حملت الأربعينيات والخمسينيات فى طياتها تطورات مهمة وخطيرة فى شبه جزيرة قطر كان أبرزها انعكاس أحداث ووقائع الحرب الأهلية فى البحرين على شبه الجزيرة التى اتخذت ميدانا لذلك الصراع ، ومعاودة الدولة السعودية بسط نفوذها على كل من البحرين وقطر ، واصطدامها بسلطة آل خليفة فى البحرين ، ودخول أبو ظبى حلبة هذا الصراع ، والأهم من ذلك كله ، وما نتج عنه ، من نمو قوة القبائل المحلية القطرية ، وظهور أسرة آل ثانى ، لتلعب بعد ذلك دورا مصيريا فى شبه جزيرة قطر ، حيث استطاعت توفير الزعامة المحلية المطلوبة ، لتخلص قطر وقبائلها من أية سيطرة فرضت عليها .

وفيما يتعلق بالحرب الأهلية فى البحرين (١٨٤٠ - ١٨٤٣) ، فقد نازع الشيخ محمد بن خليفة جده (أو عم أبيه) الشيخ عبد الله بن أحمد السلطة فى أعقاب انسحاب القوات المصرية من الأحساء عام ١٨٤٠ ، واضطر محمد بن خليفة أن يهاجر إلى قطر وأن يتودد إلى أهلها ، ليستطيع تشكيل معارضة قوية وقوة حربية يغزو بها البحرين ، فى الوقت الذى كان الشيخ عبد الله يلقى معارضة أبنائه الذين تمردوا على

سلطته ، مما أدى إلى اضطراب الأوضاع فى البحرين ، ورغم تسوية الأزمة بين الشيخين المتنافسين لفترة قصيرة ، عاد بعدها محمد بن خليفة إلى البحرين ، بينما أقام الشيخ عبد الله فى خور حسان بقطر ، إلا أن الصراع لم يلبث أن تجدد عام ١٨٤٢ ، وانتقل إلى شبه جزيرة قطر[١] .

ولا شك أن الحرب الأهلية فى البحرين قد أمدت القوى المحلية فى قطر بدم جديد حين استعان أحد طرفى الصراع وهو الشيخ محمد بن خليفة بها ، ففى غمرة استعداده لغزو البحرين للتخلص من شيخها المسن ، بدأت تظهر بعض القوى المحلية القطرية لتلعب دورها ، فبدأ يظهر الشيخ محمد بن ثانى الذى كان يقيم فى الفويرط ، حيث طلب محمد بن خليفة مساعدته فى البداية عام ١٨٤٢ لكنه لم يستجب - ولعلها كانت أول مرة يبرز فيها اسم محمد بن ثانى - فطلب محمد بن خليفة مساعدة أهل قطر الشرقيين المقيمين فى الدوحة والخور ، الذين تعاطفوا معه ، عندئذ وافق محمد ابن ثانى والمعاضيد على مساعدته ، كما لقى محمد بن خليفة دعماً ومساعدة من عيسى بن طريف وآل بن على الذين كانوا قد عادوا إلى الدوحة ، فضلا عن معاونة نفر من الجلاهمة وشيخهم بشير بن رحمة بن جابر . وهكذا حشد محمد بن خليفة من قبائل قطر قوة كبيرة اتخذت من الفويرط قاعدة للانطلاق نحو البحرين ، وفى إبريل ١٨٤٣ استطاع احتلالها ، بينما خرج الشيخ عبد الله بن أحمد ليقيم بعائلته فى الدمام. ويبدو واضحا أن القوى القطرية المحلية قد شعرت بقوتها الذاتية وقدرتها خلال تجربتها فى هذا الصراع ، وبدورها فى إيصال محمد بن خليفة إلى مركز السلطة فى البحرين[٢].

ونتيجة لدور عيسى بن طريف شيخ آل بن على فى معاونة محمد بن خليفة ، صار رجله المهم فى قطر ، وحدث أن ضجر أولاد الشيخ عبد الله بن أحمد من العيش فى الدمام فطلبوا من عيسى بن طريف أن يتوسط لهم لدى الشيخ محمد بن خليفة ليعودوا

---

(١) لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث ، ص ١٣١٠ - ١٣١٥ .

(٢) عبد العزيز المنصور : التطور السياسى لقطر ١٨٦٨ - ١٩١٦ ، ص ٣٨ .

إلى البحرين وأن ترد إليهم أملاكهم ، فأسخط قبول عيسى هذه الوساطة شيخ البحرين محمد بن خليفة ، وتفاقم الخلاف بينهما فى الوقت الذى كان خصوم الشيخ محمد بن خليفة من العتوب الساخطين عليه يتجمعون فى جزيرة قيس لاتخاذ موقف ضده ، فلحق بهم عيسى بن طريف ورجاله يساندهم حشد من المناصير والهواجر وأبناء الشيخ عبد الله ، وكانت كراهية عيسى لمسلك محمد بن خليفة وصلفه قد فاقت كراهيته للحاكم السابق عبد الله بن أحمد ، واستعد الحلفاء بقواتهم ثم اشتبكوا مع قوات حاكم البحرين فى معركة برية عام ١٨٤٧ قرب الفويرط فى موقع يسمى «أم سوية» كان النصر فيها فى البداية حليف عيسى وحلفائه ، ولكنه لم يدم ، إذ لم يلبث أن سقط عيسى قتيلا ودارت الدائرة على جموعه وحلفائه الذين لقوا هزيمة منكرة ، اضطرت معها قبيلة آل بن على أن ترحل عن قطر ، كما تبخرت آمال شيخ البحرين السابق فى العودة إلى سلطته[1] .

ونتيجة لذلك ركز أبناء الشيخ عبد الله بن أحمد جهودهم على طلب معونة الأمير فيصل بن تركى آل سعود . الذى كان فى حالة عداء مع الشيخ محمد بن خليفة ، منذ استطاع أسطول البحرين محاصرة ساحل الأحساء في العام السابق (١٨٤٦) وجرت تسوية بين الجانبين عام ١٨٤٧ تعهد فيها الأمير فيصل بعدم معاونة شيخ البحرين السابق ، كما تعهد محمد بن خليفة بأن يدفع زكاة سنوية للسعوديين مقدارها ٨٤ ألف روبية ، غير أنه لم تلبث أن ظهرت بوادر الخلاف بين الجانبين مرة أخرى عام ١٨٥٠ فى ظل استمرار مشكلة حاكم البحرين السابق وأبنائه وتهديدهم للبحرين .

ولم يلبث الأمير فيصل بن تركى أن تقدم بقواته فى عام ١٨٥٠ نحو قطر فى جولة يتفقد فيها أقاليم حكمه ، وعندما وصل قرب الدوحة ، هرع إليه الأهالى وكذلك أهالى الوكرة والفويرط ليعلنوا عن عدم ولائهم لشيخ البحرين ، ويرحبون بارتباطهم

---

(١) حول دور عيسى بن طريف فى قطر وعلاقته بآل خليفة فى البحرين راجع :

- Zahlan, R. S., The Creation of Qatar, pp. 36- 40.

وعبد العزيز المنصور ، التطور السياسى لقطر ، ص ٣٩ ؛ لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث ، ص ١٣٢٠ - ١٣٢٨ .

بالدولة السعودية ، وبات واضحا أن تسوية عام ١٨٤٧ قد تم تجاهلها ، وعموما تصدت لقوة الأمير فيصل قوة من البحرين يقودها الشيخ على بن خليفة ، كان يعاونها فى البداية قوة قطرية يقودها جاسم بن محمد آل ثانى ، فى مكان يُسمى « المسيمير » غير أن فيصل آثر الانسحاب بقواته مؤقتا ، فخشيت القوة القطرية أن يعود فيصل بحملة قوية لا يستطيعون لها ردا فى ظل غياب الرجال فى موسم الغوص ، وبينما رجع الجيش البحرينى إلى بلاده ، اقترح محمد بن ثانى مصالحة الأمير فيصل ، فاتهمه الشيخ على بالخيانة ، لكن محمد بن ثانى اتصل بالأمير فيصل وأجرى معه تفاهما وصلحا لحقن دماء قبائله مبتعدا بذلك عن آل خليفة .

وقد عزم فيصل على أن يؤدب آل خليفة فطلب من الشيخ محمد بن ثانى الذى أصبح زعيما للقبائل القطرية ، وصار هو ومعظم المعاضيد من قبيلته يقيمون فى الدوحة، أن يستعد بسفن مجهزة بالمؤن والمياه ، كما كتب إلى بشر بن رحمة شيخ الجلاهمة أن يتقدم بجماعته إلى « البدع » فعلم أهل البحرين بهذه الاستعدادات ، واستعدوا للقاء خصومهم المتحالفين الذين توجهوا إلى البحرين ليتلقوا هزيمة فى معركة سميت « نهاية معركة المسيمير » التى انتصر فيها آل خليفة .

ونتيجة لإحساس آل خليفة بأن القوة القطرية التى يقودها محمد بن ثانى وابنه جاسم تولت حركة التمرد والعصيان متعاونة مع الأمير فيصل ، جهز آل خليفة جيشا لتأديبهم ، وطلبوا أن يعاونهم الشيخ سعيد بن طحنون حاكم أبو ظبى ، الذى استجاب وتوجه بجيشه مع جيش البحرين وحاصروا الدوحة من البحر ، ومنعوا أية سفينة من الوصول إليها فأصبح القطريون يعتمدون فى مؤنهم على ما يأتيهم من الأحساء ، وطالت المناوشات ولم يجرؤ المحاصرون على اقتحام الدوحة لمرابطة جيش سعودى مساند بها . ولم تنته المسألة إلا بالصلح الذى قبل فيه السعوديون خراجا سنويا من حاكم البحرين قدره أربعة آلاف ريال فرنسى مقابل بسط نفوذه على قطر[1] .

---

(١) محمد شريف الشيباني: إمارة قطر العربية، ص ٦٥–٦٨؛ وعبد العزيز المنصور، المرجع السابق ص٤٠؛ وراجع كذلك محمود بهجت سنان : تاريخ قطر العام ، ط(١) بغداد ١٩٦٦ ، ص ٧٠ – ٧١ .

ورغم ذلك ظل التوتر قائما ، ففى عام ١٨٥٩ بدأ الحاكم السعودى للأحساء - بمعاونة الشيخ محمد بن عبد الله نجل الحاكم السابق للبحرين - يستعد لمحاولة جديدة لغزو البحرين وتولية الشيخ محمد بن عبد الله حكمها ، وكانت الحجة الظاهرة هى أن شيخ البحرين قد حرّض بعض القبائل القطرية على مهاجمة رعايا الأمير السعودى ، غير أن تدخل الأسطول الإنجليزى أوقف المحاولة تماما ، وأعقب ذلك توقيع السلطات البريطانية اتفاقية مع الشيخ محمد بن خليفة فى مايو ١٨٦١ ، اعترف فيها بصحة وسريان الاتفاقيات والمعاهدات التى عقدها أسلافه مع الحكومة البريطانية ، كما تعهد فيها بالامتناع عن الحرب « والقرصنة » وتجارة الرقيق فى مقابل حماية الحكومة البريطانية للبحرين ضد أى اعتداءات[١] .

وفى تقرير للمقيم السياسى البريطانى « بيللى » عام ١٨٦٦ ورد أن ولاء شيخ البحرين للسعوديين كان مقصودا منه المحافظة على أملاكه فى قطر ، وأنه يعتبر نفسه مستقلا فيما يتعلق بجزر البحرين . أما الخراج الذى يدفعه للسعوديين كل عام وقدره أربعة آلاف ريال ، فيدفعها لحساب ممتلكاته فى قطر والهدف منها تأمين ممتلكاته القطرية من أى هجوم عليها من قِبَل القبائل العربية من ناحية البر . وورد بالتقرير أيضا أنه خلال الفترة بين سنتى١٨٥٢ و ١٨٦٦ يبدو أنه كان للسعوديين وكيل فى الدوحة، وأن من المحتمل أن هذا الوكيل كان شيخا من شيوخ قطر[٢] .

* * *

لاحظنا خلال الصفحات السابقة أن القبائل المحلية القطرية لم تكن تقبل الخضوع لسلطة حكام البحرين ، غير أن خلافاتها وتفككها هو الذى سهل على آل خليفة بسط نوع من النفوذ عليها ، عادة ما كان يواجه دائما بأحداث تمرد واضطرابات ، ومنذ الأربعينيات من القرن التاسع عشر بدأت شخصية محمد بن ثانى ثم ولده قاسم لتوفر

---

(١) سالدانها، ج. ج. : تاريخ البحرين السياسى، ص ٦٠ ؛ وكذلك لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث، ص ١٣٣٩ - ١٣٤٣ .

(٢) راجع لوريمر : المصدر السابق ، ص ١٢١٤ ؛ وأيضا ص ١٣٤٦ - ١٣٤٧ .

تدريجيا الزعامة المطلوبة لحفز القبائل القطرية للسعى نحو الاستقلال وحكم نفسها فى شبه جزيرتها .

وينتمى آل ثانى إلى المعاضيد وهم فرع من قبيلة الوهبة الذين يعودون إلى تميم ، وقد هاجروا من شبه الجزيرة العربية فى أواخر القرن السابع عشر ، وفى بعض الروايات أنهم وصلوا إلى شبه جزيرة قطر فى أوائل القرن الثامن عشر ، وأن هجرتهم ترجع إلى صراعات قبلية تفشت فى قلب الجزيرة العربية الذى كان يمر بسنوات قحط شديد ، حولته إلى بيئة طاردة ، دفعت بموجبات هجرات نحو الساحل ، وقد هاجرت أسرة آل ثانى من بلدة « أشيقر » حيث حطت رحالها فى واحة « جبرين » فى جنوب شرق شبه جزيرة قطر ، ثم غادروها ليقيموا فى « اسكاك » ، ثم « الرويس » فالزبارة ، إلى أن استقروا فى الدوحة ، بعد مصرع شيخ آل بن على (عيسى بن طريف) .

ويجمع المؤرخون على أن آل ثانى نجحوا فى زعامة القبائل القطرية نتيجة مكانتهم الاجتماعية والاقتصادية ، مع أنهم لم يكونوا أكبر القبائل عددا ، وأن جدهم الأكبر «ثانى» الذى ولد فى الزبارةوأصبح من تجار اللؤلؤ المشهورين قد نجح فى تكوين ثروة كبيرة وأحرز مكانة اجتماعية مرموقة ، جعلته يأتلف القبائل القطرية ، خاصة وأن أسرته عرفت بالتحضر والتطور الذى اشتهر به المعاضيد ولابد أن « ثانى » قد ظفر لنفسه وللمعاضيد ببعض السلطة فى المنطقة المجاورة للبدع[1] ، وقد أوصلت هذه المكانة ابنه « محمد بن ثانى » الذى كان قد ولد فى الفويرط ، وخلفه فى زعامة آل ثانى والمعاضيد ، لكى يبرز اسمه فى قيادة بعض القبائل القطرية التى عاونت محمد بن خليفة فى انتزاع السلطة فى البحرين (١٨٤٢ - ١٨٤٣) وليبرز نفوذه ومكانته بين القبائل القطرية بشكل أكبر فى أعقاب مقتل عيسى بن طريف وتشتت آل بن على ، ثم ها هو يكشف عن مهارة سياسية عام ١٨٥٠ عندما فاوض أمير فيصل بن تركى لينجو

---

(١) شركة الزيت العربية - الأمريكية ، ص ٢٩٣ ؛ وكذلك الشيبانى : المرجع السابق ، ص ٢٩ - ٣٠؛ والدباغ : المرجع السابق ، ص ١٧٥ - ١٧٦ ؛ وكذلك سنان : المرجع السابق ، ص ٨٦ - ٨٩؛ وراجع إبراهيم جار الله التميمى : المعاضيد وقطر ، الكويت ١٩٩٩ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

بالقبائل القطرية من هزيمة مؤكدة ، ويتحالف مع السعوديين ، بل ويصبح وكيلا لهم فى قطر ، يأخذ على عاتقه جمع الزكاة والخراج من القبائل القطرية حتى وفاة الأمير فيصل (١٨٦٥) ، ثم هـا هـو يتولى زعامة القبائل القطرية فى التصدى لانتقام آل خليفة ، وليحظى بمكانة مرموقة باعتباره شيخا للبدع ، وإن كان بسلطة غير كاملة ، يحد منها نفوذ آل خليفة ، الذين كان يمثل القبائل القطرية أمامهم .

وعـندما زار الرّحالة « بلجريف » قطر فى يناير ١٨٦٣ ذكر أنه التقى بمحمـد ابن ثانى «حاكم البدع، الذى يعترف به الجميع رئيسا للمنطقة كلها ، مع أنه لا يملك سلطة كبيرة على القرى الأخرى التى يقوم سكانها بتدبير أمورهم مع رؤسائهم المحليين» وقـد وصفه بأنه « داهية عجوز وبدين إلى حد ما ، يشتهر بالحكمة وبساطة السلوك الـذى يدل على خفة ظله ، وإن كان عنيدا عند المساومة ، وهو رجل عملى فى المقام الأول ، اسـتطاع عن طريق الدراسة أن يحوز معرفة أدبية وشعرية ، وقدرا من المعرفة بالطـب .. كما أنه رجل متدين جدا يؤم الناس فى الصلاة فى المسجد الكبير فى معظم الأحـوال .. » . وقد زار بلجـريف كذلك ولده وولى عهده قاسـم ، ووصفه بأنه « شخصية مندفعة أكثر من والده ، وأن قصره يشبه القلعة ... » . وانتقل الرحالة بعد ذلـك إلى زيـارة الدوحة التى وصفها بأنها « قرية شمال مدينة البدع ، وتقع فى نصف حجمها ، ورئيسها ليس إلا جابيا لحساب محمد بن ثانى .. »[1] .

وعمومـا اسـتمرت حالة العداء والاستعداد بين القبائل القطرية وآل خليفة الذين اعـتقدوا أن سـلطتهم على قطر قد استمدوها بالشراء من السعوديين ، وأن القطريين ممثلين فى آل ثانى أصبحوا فى جانب السعوديين ، وقد عين آل خليفة ممثلا لهم على قطر هـو (أحمـد بـن محمد آل خليفة) الذى حاول أن يتقرب من القطريين فأصهر إلى زعيمهم محمد بن ثانى ، ومع ذلك فإن شراسة طباعه جعلته يعامل القطريين بالاستهانة والغلظة حتى كرهوه .

---

(١) وليم جيفور بالجريف ، وسـط الجزيرة العربية وشرقها ، ترجمة صبرى محمد حسـن ، الجزء الثانى ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠١ ، ص ٢٧٠ - ٢٧٨ .

وفى عـام ١٨٦٦ اعـتدى رجاله على قافلة للنعيم كانت فى سوق الوكرة تتجهز لـرحلة الغوص واستولوا على أمتعتها ، وعندما قاومت سجن ممثل آل خليفة رئيسهم (عـلى بـن ثامر) فاهتاج النعيم وطلبوا إلى قاسم بن محمد آل ثانى ، الذى كان يقيم بالدوحـة آنـئذ ، أن يـتدخل لكف الأذى عنهم ، فما كان منه إلا أن قاد القطريين وحاصـر ممـثل آل خلـيفة بقلعة الوكرة ، لكنه إستطاع الهروب بليل إلى البحرين ، واستطاع الثائرون إطلاق سراح السجين ، وتوالت بعد ذلك الأحداث التى زادت من حالـة العـداء ، والتى بدأ القطريون خلالها يستعدون لإنهاء أية سلطة لآل خليفة على بلادهـم .. وفى الوقت الذى كاد فيه أن ينتهى نفوذ السعوديين فى أعقاب وفاة الأمير فيصل بن تركى .

أعقب ما سبق أن كتب قاسم بن محمد رسالة إلى الشيخ محمد بن خليفة يشرح له فـيها الموقف وسوء تصرف عامله الهارب وعدم كفاءته فى تصريف الأمور فى قطر ، وأشـار علـيه بعزله ، وطلب بصراحة ووضوح منح قطر استقلالا شبه ذاتى فى إدارة شـؤونها ، وإلا فـإنهم سيخلعون طاعته ويطلبون المساعدة من أى حاكم يعاونهم فى الحصـول على استقلالهم إن لم تتحقق مطالبهم ، وفى رواية أخرى أنه قد يلتجئون إلى طلب الحماية من السعوديين[1] .

وبطبـيعة الحال لم تكن التطورات السابقة فى صالح آل خليفة أو تتفق مع رغبتهم الانفـراد بقطـر ، لذلـك دعا آل خليفة زعماء النعيم إلى زيارة البحرين ، وأكرموا وفادتهم ، حتى ينقلوا ذلك لجماعتهم فى قطر ، لتهدأ النفوس ، فى الوقت الذى خططوا فيه للتخلص من قاسـم بن محمد آل ثانى ، لذا أرسـلوا إليه رسالة ودية لدعوته لأن يسـتأنف زياراتـه المعتادة للبحـرين ، وعبروا فيها عن استيائهم من سـوء تصرف عامـلهم مـع النعيم فى الوكرة ، وحثوه على المجىء « للتشاور وتجديد الصحبة وإزالة الشبهة .. » ، وتقدم قاسم بجرأة ، وما كاد يصل إلى المنامة حتى ألقى به فى السجن !

---

(1) Zahlan, R. S., The Creation of Qatar, p. 41.

وعبد العزيز المنصور ، المرجع السابق ، ص ٤١ .

وكانت هذه الواقعة بداية لسلسلة من المعارك البرية والبحرية ، دارت بين شيوخ البحرين ، وبين القبائل القطرية ، التى تولى قيادتها محمد بن ثانى وابنه قاسم .. ويلاحظ المؤرخون أن شخصية قاسم بدأت تبرز على نحو كبير باعتباره زعيما وطنيا خلال هذه المعارك ، وكان الرجل بالفعل تتوفر فيه عناصر الزعامة من الذكاء والجرأة وحسن السياسة ، واستطاع أن يعبر عن شعور القبائل القطرية ورغبتها فى التخلص من أى نفوذ أو سلطة عليها من خارج شبه الجزيرة القطرية .

وقد استعد آل خليفة فى البحرين بقوة بحرية هائلة استهدفت شن حملة على قطر ، وقد عاونهم حاكم أبو ظبى بقوة كبيرة ، وبدأ الهجوم على الوكرة والدوحة فى أكتوبر ١٨٦٧ ، حيث دخلت القوات المتحاربة الدوحة وخرّبوها وشرّدوا أهلها . كما نهبوا ما تبقى فى المدينة بعد رحيل الكثير من سكانها تاركين بيوتهم وأموالهم « وتفرقوا شذرا وخربت تلك البلدة وكانت هى قصبة قطر » كما يقول « النبهانى » . أما رواية « لوريمر » فتذكر أن « مدينتى الدوحة والوكرة كانتا فى نهاية عام ١٨٦٧ قد أزيلتا تماما من الوجود » .

غير أن القطريين لم يلبثوا أن جمعوا صفوفهم ، واستعدوا بعد انتهاء موسم الغوص، للانتقام وإطلاق سراح زعيمهم قاسم بن محمد ، وبالفعل بدأوا هجوما كبيرا على البحرين فى يونيو ١٨٦٨ ، حيث التقى جيشهم بجيش آل خليفة فى معركة « أحمر وجه البحر منها » كما يقول النبهانى ، فى موقع من جزر البحرين اسمه « دامسة » و لم يستطع القطريون التقدم ، بل إنهم آثروا التقهقر إلى قطر فى خطة لاستدراج أسطول آل خليفة للانقضاض عليهم وقطع سبل العودة إلى سفنهم ، وبالفعل نجحت خطة القطريين بعد أن باغتوا خصومهم بهجوم كبير قبل أن يستقروا فى المدينة ، ونجحوا فى أسر الشيخ إبراهيم بن عيسى آل خليفة وكذلك الشيخ حمود بن سلمان آل خليفة ، حيث ساوموا آل خليفة بهما لإطلاق سراح قاسم بن محمد آل ثانى .

ولما كان آل خليفة قد تعهدوا لبريطانيا عام ١٨٦١ بالحفاظ على السلام فى البحر، لذلك فإن هجومهم البحرى على قطر ، وبمساعدة أبو ظبى ، اعتبر فى نظر السلطات البريطانية فى الخليج خرقا للمعاهدة وتحديا لهيبة ونفوذ بريطانيا ، لذلك طلب المقيم

السياسى « لويس بيللى » قوة من حكومة الهند مع تفويض كامل باتخاذ الإجراءات الكفيلة بردع حاكمى البحرين وأبو ظبى ، وتقرر فرض عقوبة مالية على شيخ أبو ظبى تعويضا عن الخسائر التى لحقت بقطر والاعتذار عن عمله هذا والتعهد بمسلك أفضل فى المستقبل .. أما البحرين فقد كان موقف المقيم منها أكثر تشددا ، باعتبارها مصدر هذه المشاكل ، ولما كان الشيخ محمد بن خليفة قد فرَّ خارج البحرين على إثر التحرك البريطانى ، فقد وقّع « بيللى » مع شقيقه الشيخ على بن خليفة تعهدا بدفع غرامة كبيرة وأن يحافظ على السلم فى البحر ، كما تقرر أن يتولى السلطة فى البحرين ، بدلا من أخيه الذى لم يعد أهلا للحكم ، وتعهد الشيخ على كذلك بتسليمه إلى السلطات البريطانية ، كما تقرر تسليم السفن الحربية التى يملكها آل خليفة للقائد البريطانى الذى تولى إحراقها ، وكذلك جرى تدمير قلعة أبو ماهر فى المحرَّق ، ووزع الجزء الذى تم جمعه من الغرامة على المتضررين من أهالى قطر ممن أصابهم العدوان .

وتقدم بيللى بسفن الأسطول البريطانى إلى سواحل قطر فوصل إلى الوكرة فى أوائل سبتمبر ١٨٦٨ ، واجتمع هناك بكبار شيوخ قطر وعلى رأسهم الشيخ محمد بن ثانى ، وأظهر استياءه من حملتهم التى شنوها على جزر البحرين ، وذكر أن حكومة بلاده تستفهم حجتهم فى أنها لم تكن سوى حملة انتقامية ، وأنها تعتبر ذلك سببا يهدئ الاضطراب ، ثم وقّع بيللى معاهدة مع الشيخ محمد بن ثانى فى ١٢ سبتمبر ١٨٦٨ ، نصت على أن يقيم محمد بن ثانى فى سلام فى الدوحة (التى كان قد غادرها إلى داخل شبه الجزيرة القطرية خلال المعارك) وأن لا يقوم بأى أعمال عدوانية فى البحر ، وأن يحتكم إلى المقيم فى أى نزاع ، وأن يقوم بتسليم محمد بن ثانى خليفة للسلطات البريطانية إذا وقع فى يده ، وأن يكون على علاقة طيبة مع الشيخ على بن خليفة ، وإذا ما اختلفا بأى شأن يتعلق بدفع الأموال أو غيرها ، فإنه لابد أن يحتكم إلى المقيم السياسى البريطانى بهذا الشأن[1] .

---

(١) راجع نص المعاهدة بكتاب وثائق التاريخ القطرى ، (٢) من الوثائق (البريطانية والعثمانية ١٨٦٨ - ١٩٤٩) تقديم أحمد العنانى ، الدوحة ١٩٧٩ ، ص ١٠ - ١١ ، وتعليقات المنصور ، المرجع السابق ، ص ٤١ ؛ وجمال زكريا ، المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

وهكـــذا أدخلت معاهدة ١٢ سبتمبر ١٨٦٨ قطر ضمن سلسلة اتفاقيات السلام العام والهدنة البحرية التى وقعتها إمارات الخليج العربى مع الحكومة البريطانية ، مما يعنى اعتـــبارها مشيخة أو إمارة مستقلة ، غير خاضعة لأية سلطة من جانب جيرانها ، كما وقّعها محمد بن ثانى باعتباره « شيخا لقطر » ، لذلك اعتبر المؤرخون أن قطر منذ هذه الفـــترة ظهـــرت ككيان سياسى مستقل ، كإحدى إمارات الخليج العربى ، وأن ذلك ســـجل تاريخـــيا بداية حكم أسرة آل ثانى باعتبارهم حكاما على قطر ، وبداية مرحلة تاريخية جديدة .

* * *